الحياة - ٩٠/١/١٢

يهود الشرق قادمون!

غسان سلامة *

■ الشاب الوسيم الذي يتزعم الآن الحزب الشيوعي في المانيا الشرقية «من اصل يهودي». والشاب ذو الملامح الهوليوودية الذي رأيناه جالسا الى جانب الزعيم الروماني الجديد، ثم علمنا بتعيينه رئيسا للوزراء في رومانيا، هو ايضاً «من اصل يهودي». ويعلم كثيرون ان رئيس مجلس السوفيات الاعلى في موسكو، ورئيس مجموعة العلماء المهتمين بالشرق الاوسط في العاصمة السوفياتية، ناهيك عن عدد كبير من المسؤولين المحيطين بغورباتشوف هم، كما تقول الصحافة الغربية، «من اصل يهودي». بكلام اوضح، اننا نرى اليوم، في خضم التحولات الهائلة الحاصلة في اوروبا الشرقية، مسؤولين كبارا كثيرين، لا تتجنب الصحافة التذكير «باصولهم اليهودية».

هذ التذكير يعني واحدا من امرين. فهو يعني من جانب، ان الانفتاح الاعلامي، والتسامح الديني، وانكسار حدة السياسات الالحادية الموروثة من ايام ستالين، كل هذا ادى عمليا الى نوع من الحرية في التعبير عن المشاعر والولاءات الدينية التي كانت حتى اليوم مختبئة تحت ستائر الشيوعية الملحدة. واذا كان غورباتشوف يسمح للكنيسة الروسية باقامة قداس احتفالي داخل اسوار الكرملين. واذا كان الشيوعيون الروس يقيمون احتفالات عظيمة بالذكرى الالفية الاولى لاعتناقهم الدين المسيحي. واذا كان فاكلاف هافيل رئيس المعارضة التشيكوسلوفاكية حتى البارحة، يبدا عهده المفاجئ كرئيس لبلاده بحضور قداس كاثوليكي. واذا كان رئيس وزراء بولندا يضع صورة «العذراء السوداء» على سترته باستمرار. واذا كان الحكم الجديد في رومانيا يسمح بإذاعة قداس عيد الميلاد من تلفزيون البلاد بعد انقطاع اربعين عاما. واذا كان يسمح لمسلمي الاتحاد السوفياتي بالتعبير الاوضح عن مشاعرهم الدينية (بل والمذهبية) في اذربيجان واوزبكستان وطاجكستان... فلماذا نفاجا اذا قيل لنا ان هذا المسؤول او ذاك في موسكو او براغ او برلين او بوخارست، ينتمي للدين اليهودي؟ وقد نسال لماذا هذا الحرج عند الغربيين انفسهم عندما نراهم يكتفون بالقول ان هؤلاء المسؤولين «من اصول يهودية»، فحسب، وكان «هذه الاصول» جزء من التاريخ، لا من الحاضر والمستقبل؟ بكلام اخر، فان الوجه الاول والاوضح لهذه الظاهرة مفاده ان كل سكان اوروبا الشرقية اصبحوا يقولون بصراحة ولاءاتهم، او على اقل الاقل اصولهم (وحنينهم واشتياقهم) الدينية، فلماذا نحصر هذا الحنين بالمسيحيين، من ارثوذكس وكاثوليك، وبالمسلمين من سنة وشيعة ولا نقبله من اليهود؟ يبدو الامر في هذا السياق طبيعيا لانه امر شامل عمومي، يمس السكان جميعا على اختلاف دياناتهم.

بين الشيوعية و الصهيونية

لكن عددا من المسؤولين العرب في المشرق لا يرون الامر بهذه البساطة على الاطلاق. فالامر في نظرهم ليس اعلانيا فحسب، بمعنى انه لا يشير فقط الى التعبير الحر عن الولاءات الدينية المكبوتة سابقا، على تنوعها. فبعض العرب يرى في البيريسترويكا، وفي بروز مسؤولين عديدين في دول اوروبا الشرقية بعد الاعصار الذي مر بها في الاسابيع الاخيرة نموا متعاظما في عدد ابناء الدين اليهودي وفي نفوذهم داخل المؤسسات السياسية الجديدة، ويشعر المراقب الموضوعي ان بعض المسؤولين العرب انتقل فعلا من خرافة الى اخرى ومن تحليل اسطوري الى آخر. فبالامس كنا نسمع بعضهم يقول ان الشيوعية هي «مؤامرة صهيونية بل يهودية» ضد القوميات والاديان الاخرى في العالم. واليوم نسمع بعضهم الاخر يقول ان انكسار الشيوعية في دول اوروبا الشرقية هو مؤامرة صهيونية جديدة لمنع العرب والمسلمين من التمتع بحسنات «تحالفهم الاستراتيجي» مع دول «المنظومة الاشتراكية»، رحمات الله عليها! وقد سمعت احدهم يرد على هذا الكلام بجواب واثق حين «فسر» لمن حوله بان الشيوعية كانت مؤامرة يهودية، غير ان قادة اوروبا الشرقية عادوا فابتعدوا عن اسرائيل لمصلحة العرب، فما كان من الصهاينة الا ان انقلبوا على صنيعتهم السابقة (الشيوعية) وما زالوا ينقضون عليها حتى قضوا عليها لمصلحة حليفهم الجديد الثابت اي الولايات المتحدة الاميركية.

كانت هذه النقاشات لتبقى نظرية بحتة لولا انعكاساتها السياسية الواسعة. واهم هذه الانعكاسات طبعا موضوع شديد الحساسية: هجرة اليهود السوفيات. ففي الوقت الذي يؤكد لنا بعض العرب ان اليهود لم يكونوا يوما بالقوة التي لهم الآن في موسكو، نرى اعداد اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفياتي في تزايد متسارع. والامران ليسا بالضرورة متناقضين. فالاتجاهات الحالية في اوروبا الشرقية تسمح لليهود في الآن معا، بالتعبير العلني الاوضح عن ولائهم الديني (مثل انشاء مركز ديني يهودي نشيط في موسكو) وبالمقدرة الاكبر على الهجرة من الاتحاد السوفياتي. وبعضهم من يختار البقاء حيث هو والاستفادة من الانفتاح السياسي والديني، والاقتصادي طبعا، وبعضهم الاخر من يكتفي من السياسات الجديدة، بأمر واحد، هو جواز سفر للمغادرة النهائية.

هذا الاختلاف في الموقف من البيريسترويكا كاف لدحض مقولة «المؤامرة اليهودية الجديدة». فالمسالة هي ايضا، بل هي اساسا، مسالة قرار فردي يتخذه المواطن السوفياتي، يهوديا كان ام لا. وقد يرى ذلك المواطن ان الانفتاح الحاصل في اوروبا الشرقية كلها يفتح الباب على آفاق ليست بالضرورة ملائمة. فان حصل اليهود على حق التعبير الاوضح عن ديانتهم فان فئات واسعة من المجتمعات في شرق اوروبا هي ايضا امست تعبر بصورة اوضح عن ميولها وتطلعاتها وهواجسها. ومن بين هذه الميول المتصاعدة في اوروبا الشرقية، ميل قديم متجذر نحو عداء السامية وكراهية اليهود. والواقع ان المجازر التي اوقعتها النازية الالمانية باليهود في الثلاثينات من هذا القرن، قد انست العرب وغيرهم المصاعب والويلات التي كان اليهود يلاقونها في شرق اوروبا قبل استقرار الانظمة الشيوعية في هذه البلاد. ان العداء لليهود كان منتشرا في روسيا وبولندا ورومانيا وغيرها من البلاد، مما ادى الى مجازر عديدة كانت القاعدة التي بنى عليها تيودور هرتزل وغيره من زعماء الصهيونية، مقولة انشاء دولة خاصة باليهود خارج اوروبا، وبالذات خارج اوروبا الشرقية والوسطى التي شعرت فيها الجماعات اليهودية بالخطر والاضطهاد قبل ان ينظّر ادولف هتلر لموضوع «الحل النهائي» ولمشروع ابادة اليهود الجماعية.

بين الشوفينية و النازية

من هنا تخوف العديدين من عودة المشاعر المعادية لليهود مع انكسار الحاجز الواقي الذي شكلته الانظمة الالحادية في دول اوروبا الشرقية. ولذلك فاننا نرى في الان معا صعودا للافراد اليهود في سلّم المؤسسات السياسية، وتخوفا متزايدا لدى الجماعات اليهودية من عودة المشاعر المعادية لها. ولقد استمعت اخيرا لمحاضرة القاها مثقف بولندي يهودي من مؤيدي حركة «التضامن» مفادها انه يؤيد الحركة ويعتبر نفسه واحدا من مؤسسيها، لكنه متخوف ايضا من تنامي المشاعر المعادية لليهود في قاعدة الحركة نفسها. ولا ريب ان حادثة دير الكرمل في محيط معسكر اوشفيتز في بولندا السنة الماضية كانت معبرة تماما عن هذه التخوفات. فقد جاء يهود من نيويورك الى محيط الدير وشتموا الراهبات المقيمات فيه بينما ذهب كاردينال فرصوفيا الكاثوليكي لاتهام اليهود بالعجرفة. وقد اعادت هذه الحادثة ذكريات ايام قاسية كانت العلاقات فيها بين الاكثرية الكاثوليكية والاقلية اليهودية متوترة بل سيئة بحيث راح المثقفون اليهود يتهمون الاكثرية البولندية بـ «التواطؤ الموضوعي» ان لم يكن العملي مع النازية التي احتلت بلادهم بهدف ابادتهم التامة. ونحن نسمع اليوم ايضا بعض قادة حركة «باميات» الاصولية المسيحية الشوفينية في الاتحاد السوفياتي يتحدثون بالتعابير نفسها عن «بروتوكولات حكماء صهيون» وعن «المؤامرة اليهودية» وما شابه من التعابير. وقد ادى انفجار هذه المشاعر المكبوتة في ظل الالحاد

الشيوعي لفترة تقارب النصف قرن الى تزايد الكتب والمقالات الصادرة في باريس ولندن ونيويورك التي تعيد التركيز على «العداء لليهود» المستحكم في شعوب اوروبا الشرقية وبالذات في روسيا الارثوذكسية وبولندا الكاثوليكية.

لماذا نتعجب اذن اذا فكر يهود اوروبا الشرقية بالاستفادة من الظروف الحالية لا لتمكين مواقعهم في تلك البلاد، وانما للهجرة الى بلاد اخرى؟ لماذا نتعجب اذا راينا قادة المؤسسات اليهودية في اميركا ينصحون ابناء دينهم بالبقاء حيث هم بينما يفكر يهود اوروبا الشرقية بالمغادرة؟! لا، ليس التعجب في مكانه، اذا كان الشعور بالخوف من المستقبل مبنيا على ذكريات الماضي الصعبة.

المشكلة ليست في الهجرة نفسها، بل في هدفها الجغرافي. كان يهود الاتحاد السوفياتي يختارون في اكثريتهم الساحقة الهجرة الى الولايات المتحدة الاميركية على الرغم من الدعوات الحارة التي كانت تاتيهم للهجرة الى اسرائيل. وكانت الولايات المتحدة بالتالي تعطي اي مهاجر يهودي من الاتحاد السوفياتي وثيقة اللجوء السياسي اليها ثم الهوية الاميركية بعد حين. ولم يكن اكثر من واحد من اصل كل عشرة مهاجرين يهود يذهب للاستقرار في اسرائيل. فالولايات المتحدة كانت «ارض الميعاد» الحقيقية الراسمالية الديموقراطية، في عين المهاجرين اليهود، لا اسرائيل حيث النقابات والمرتبات المحدودة والضرائب الباهظة ناهيك عن الحرب الدائمة مع الفلسطينيين والعرب.

لكن واشنطن غيّرت اخيرا سياستها. فمع تدفق المهاجرين الجدد لم يعد حق اللجوء السياسي يعطى لليهود السوفيات الا بالقطارة وفي حالات استثنائية ولم يعد هناك موظف خاص في القنصلية الاميركية في روما يعطي تاشيرات الدخول الاوتوماتيكية للمهاجرين اليهود. بل اصبح الآن قانون الهجرة الاميركي العادي يطبق على اليهود السوفيات كما على غيرهم من الناس. ودخلنا في زمن التناقض السلبي: ففي الوقت الذي تتزايد فيه اعداد المهاجرين اليهود بفضل الانفتاح الحاصل في اوروبا الشرقية، تقفل الولايات المتحدة ابوابها في وجه هؤلاء المهاجرين. فالمعاملة المميزة التي تمتعوا بها سنوات طويلة كانت مرتبطة بصعوبة مغادرة الاتحاد السوفياتي. اما اليوم فحالهم حال غيرهم.

من هنا هذه الظاهرة الجديدة الحاملة في طياتها انعكاسات هائلة على مستقبل اسرائيل وعلى قضية فلسطين، الا وهي تلك الهجرة الواسعة الحاصلة حاليا من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل والاعداد تثير القلق فعلا. كان الرقم المتداول منذ شهر او شهرين هو ٤٠ الف مهاجر كل سنة خلال السنوات الخمس المقبلة، ثم ارتفع الرقم الى ٦٠ الفاً، فالى مئة الف وهناك اليوم بين المسؤولين الاسرائيليين من يؤكد ان مليوناً من المهاجرين اليهود قد يصلون الى اسرائيل خلال عقد التسعينات الحالي انطلاقا من الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية! مليون مهاجر جديد الى «ارض الميعاد»، عمليا البلد الوحيد المستعد لاستيعاب هذه الموجة البشرية والمصفق لحصولها.

من الصعب طبعا الجزم اليوم بحصول هذا التطور الدراماتيكي بصورة اكيدة، لكنه امر اصبح ممكنا ان لم يكن محتملا. يبقى طبعا ان تبقى سياسة الانفتاح السوفياتية على ما هي، وسياسة الانغلاق الاميركية كما اصبحت منذ اسابيع قليلة، والتشجيع الاسرائيلي كما هو، فتصبح النتيجة الدراماتيكية شبه مؤكدة خصوصا ان استمرار المشاعر المعادية لليهود بالتصاعد (او بالتصعيد الاصطناعي من خلال الاستفزاز الخارجي وهذا ما رأيناه مرارا خلال هذا القرن). ماذا سيكون مستقبل اسرائيل بدخول هؤلاء المهاجرين شبه المرغمين على اختيار اسرائيل دون غيرها من البلدان في الغرب هدفاً لهجرتهم؟ ماذا سيكون مستقبل الدولة ذات القوميتين شبه المتعادلتين عدديا نحو سنة ٢٠٢٠، كما كانت التوقعات الاسرائيلية تقول قبل اخذ هذه الموجة الجديدة بالحسبان؟ ماذا سيكون مستقبل شعار «الارض مقابل السلام» ان اصبحت الحاجة الاسرائيلية لمزيد من الارض ماسة كما في السابق لاستيعاب هذه الاعداد الهائلة من المهاجرين الجدد؟ كيف ستتطور الانتفاضة الفلسطينية ان عادت ارقام الهجرة لاسرائيل تتفوق بفارق كبير على ارقام الهجرة منها؟

وزر جديد على العرب !

هذه اسئلة اساسية تمس مستقبل منطقتنا بصورة مباشرة، بل هي الاسئلة التي تبحث عن اجوبة عاجلة. ويقيني انه لو قيض لهذه الهجرة الهائلة ان تحصل فان السلام والعدل في منطقتنا سيصبحان اكثر من اي وقت مضى، حلما مستحيلا. وقد يكون الحل فعلا في وقف ظاهرة تصدير المشاكل الداخلية الاوروبية نحو منطقتنا من العالم، فقد قاسينا ما يكفي من عجز المجتمعات الاوروبية، الغربية والشرقية على السواء، عن حل مشاكلها، بدءا بمشكلة الاقليات القومية والدينية. ونحن اليوم على عتبة تحمل وزر جديد لمسالة لا علاقة للفلسطينيين ولا للعرب باصلها.

وقد يكون من الضروري اولا البحث مع الاتحاد السوفياتي بوقف هذا المد الجديد ولو بصورة موقتة. فاذا كان معظم المهاجرين لا يرغب في الهجرة الى اسرائيل، كما راينا في السابق، واذا كانت هجرتهم تضر الى هذا الحد بحظوظ السلام ان لم تقض عليها تماما، فالاولى بالدول المعنية وقف هذه الهجرة ريثما تتضح مطالب المهاجرين، وحقوق ضحايا الموجة. اما على الامد الطويل، فالعمل الجاد لعقد مؤتمر دولي يقوم بتحديد واضح لحدود دولة اسرائيل امر اصبح ضروريا وعاجلا. فاقامة تلك الحدود، والسماح لدولة فلسطين بالنشوء على جزء من ارض فلسطين هو الكابح الحقيقي لهذه الهجرة المتزايدة. اما اغفال حق الفلسطينيين في دولتهم على ارضهم، او على جزء منها، وابقاء حدود اسرائيل للشرق في مجال التكهن والمفاوضة فمن شانه ابقاء ارض فلسطين الاصيلة حيزا تحل فيه مجتمعات اوروبا شؤونها المستعصية على حسابنا... من وعد بلفور حتى البيريسترويكا!

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.